ISSN: 1994-4217 (Print) 2518-5586(online)

Journal of College of Education

Available online at: https://eduj.uowasit.edu.iq

Assist. Prof. Dr. Hussam Qaddoorie

Assist. Prof.Dr. Bushra Yaseen Muhammed

University of Baghdad / College of Education (Ibn Rushd) for Human Sciences

Email: husam.qaddoori@ircoedu.uobaghdad.edu.iq

Keywords:

Crescent moon, criticis,m new criticism ,Alhussaien, introduction ،Poetry

A r t i c l e i n f o

Article history:
Received 15.Oct.2022
Accepted 17.Dev.2022
Published 1.Feb.2023

The initiation of the moon in the poem in the (Al- Husseiny) poetry critical analytical approach

A B S T R A C T

The treasury of al-Hussaieny poetry seems to be full of poetic phenomena that are still confined to the bureaucracy and poetic collections without any serious approaches to the research of its various literary orientations. literary) at the same time; Its temporal appearance, and the shifts that took place in the semantic understanding of the meaning of the crescent, and its literary use to become a sign of collective understanding in the path (literary - religious - social), and takes it out of what it was of a semantic value, or a specific aesthetic theme familiar and inherited by the literary memory.

This research attempts to approach the idea of the lunar initiation, and its connection with Muharram al-Haram, and the At-Taff incident, and how did the poets manage with individual efforts that later turned into a value equivalent to the inherited value? And how did the poets create a new meaning that parallels the old meaning, goes along with it and is just for it in the abstract connotations, and the literary connotations that the context employs? And how poets were able to break the dominance of these ancient connotations.

© 2022 EDUJ, College of Education for Human Science, Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/eduj.Vol50.Iss2.3477

الاستهلال القمري في الشعر الحسيني مقاربة تحليلية نقدية

أ.م.د. حسام قدوري عبد محمد أ.م.د بشرى ياسين محمد

جامعة بغداد / كلية التربية (ابن رشد) للعلوم الإنسانية

الملخص :

تبدو خزانة الشعر الحسينيّ ملأى بالظواهر الشعريّة التي ما زالت حبيسة الدواوين، والمجموعات الشعريّة من دون أن يقتحم البحث على اختلاف توجهاته الأدبية غمار مقاربات جادّة فيها، وتمثّل ظاهرة الاستهلال القمريّ واحدة من تلك الظواهر التي تستحقّ الاهتمام، وترجع أهمية هذه الظاهرة لكونها تعكس تطوّراً (اجتماعياً– أدبياً) في آنٍ واحد ؛ فظهورها الزمنيّ،

وما جرى عليها من انزياحات في الفهم الدلالي لمعنى **الهلال**، وتوظيفه أدبياً ليصبح علامة لفهم جمعيّ في مسار (أدبي – ديني – اجتماعي)، ويخرجها عمّا كانت عليه من قيمة دلالية، أو ثيمة جمالية محدّدة معهودة ورثتها الذاكرة الأدبية .

هذا البحث يحاول مقاربة فكرة الاستهلال القمريّ، وارتباطه بمحرّم الحرام، وحادثة الطفّ، وكيف استطاع الشعراء بجهود فردية تحوّلت في ما بعد إلى قيمة مكافئة للقيمة الموروثة ؟ وكيف خلقَ الشعراء معنى جديداً يوازي المعنى القديم، ويسايره ويكون عِدلاً له في الدلالة المجردة، والدلالات الأدبية التي يوظفها السياق ؟ وكيف استطاع الشعراء كسر الهيمنة لتلك الدلالات القديمة .

الكلمات المفتاحية : الهلال ، نقد ، نقد حديث ، الحسين ، المقدمة ، الشعر .

توطئة :

تكمن أهمية الموضوع في أمور :

أوّلاً : في القيمة الذاتية للمنجز الشعريّ نفسه، أي في قضية توظيف **الهلال** دلالياً في معنى جديد، وبيئة جديدة لم تكن معروفة من قبل .

ثانياً : في كون التجربة الشعرية هذه حافزاً لما يمكن أن تؤديه اللغة من قدرات خلّاقة تكسر جمود مفرداتها، وتراكيبها، وسياقاتها، وأنساقها القديمة في ضوء أنساق، ورؤى جديدة .

ثالثاً : ارتباط التجربة هذه بهيكل القصيدة العربية التقليدية ؛ لارتباطها بالمقدمة من دون غيرها من أجزاء الهيكل الخاص بالقصيدة العمودية، وبالتالي فهي تجربة تخلق نمطاً جديداً للمقدمات في الشعر العربيّ راعى المأثور الموروث في كلاسيكية المقدمة من جهة، وكسر هيمنة الأغراض التقليدية من جهة أخرى .

والبحث في هذا الإطار يحاول تلمّس التجربة في فهم تأريخيّ لها، ثم يضع مقاربات اجتماعية تتفهم الوعيّ (الديني – الأدبي) المغذّي للتجربة، ومحاولة نقد ذلك، وقد قسّم البحث على أجزاء تقود إحداها إلى الأخرى .

الهلال، رؤية معجمية اجتماعية :

يرتبط المعنى المعجمي لمادة (هـ ل ل) بحاسّة السمع، وهو أمرٌ يدعو للاستغراب ؛ يقول ابن فارس (ت 395 هـ) : (الْهَاءُ وَاللَّامُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى رَفْعِ صَوْتٍ، ثُمَّ يُتَوَسَّعُ فِيهِ فَيُسَمَّى الشَّيْءُ الَّذِي يُصَوَّتُ عِنْدَهُ بِبَعْضِ أَلْفَاظِ الْهَاءِ وَاللَّامِ. ثُمَّ يُشَبَّهُ بِهَذَا الْمُسَمَّى غَيْرُهُ فَيُسَمَّى بِهِ) (ابن فارس، 1979: 11/6)، ومعنى كلامه أنّ تلك الدلالات الثانوية إنما تنشأ بالمجاورة، فالمعنى العام للجذر يدلّ على كلّ ما له صلة بصوتٍ .

ويرى ابن فارس أنّ الأصل في هذا الجذر ارتباطه بالحجّ، فقال : (وَالْأَصْلُ قَوْلُهُمْ أَهَلَّ بِالْحَجِّ: رَفَعَ صَوْتَهُ بِالتَّلْبِيَةِ) (ابن فارس، 1979: 11/6)، وهذا الأصل يوضّح القيمة الدينية للجذر، وهو ما يُفسّر لنا بجلاء ارتباط هذا الجذر بالمعاني الدينية ؛ كالصيام مثلاً .

لهذا الجذر دلالات كثيرة ذكر ابن فارس جملةً منها :

- قال : (وَاسْتَهَلَّ الصَّبِيُّ صَارِخًا: صَوَّتَ عِنْدَ وِلَادِهِ) (ابن فارس، 1979: 11/6).
- قال : (وَيُقَالُ: انْهَلَّ الْمَطَرُ فِي شِدَّةِ صَوْبِهِ وَصَوْتِهِ انْهِلَالًا) (ابن فارس، 1979: 11/6)
- قال : (الْهُلَاهِلُ: الْمَاءُ الْكَثِيرُ، وَهَذَا لِأَنَّ لَهُ فِي جَرَيَانِهِ صَوْتًا) (ابن فارس، 1979: 11/6).
- قال : (وَيُقَالُ لِلْخَيْلِ: هَلَا: قِرِي، صَوْتٌ يُصَوَّتُ بِهِ لَهَا) (ابن فارس، 1979: 12/6).

ويفسّر ابن فارس سبب تسمية **الهلال** بهذا الاسم بالصوت أيضاً ؛ لأنّ الناس إذا رأوا الهلال كبّروا، وهللوا، قال : (وَأَمَّا الَّذِي يُحْمَلُ عَلَى هَذَا لِلْقُرْبِ وَالْجِوَارِ فَالْهِلَالُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، سُمِّيَ بِهِ لِإِهْلَالِ النَّاسِ عِنْدَ نَظَرِهِمْ إِلَيْهِ مُكَبِّرِينَ وَدَاعِينَ.

وَيُسَمَّى هِلَالًا أَوَّلَ لَيْلَةٍ وَالثَّانِيَةَ وَالثَّالِثَةَ، ثُمَّ هُوَ قَمَرٌ بَعْدَ ذَلِكَ) (ابن فارس، 1979: 11/6)، وعليه فإن تسمية الهلال مرتبطة أصالةً بالطقس الدينيّ، ولا غرابة أن تبقى هذه القيمة القديمة مركوزة في الذهنية اللغوية لتعود حين احتاج إليها الشاعر في توظيف ديني جديد ؛ وهو مراسم عاشوراء .

وللهلال معانٍ أخرى يغلب عليها التشبه بالهلال وشكله، ثم تطورت لتدل على معانٍ فيها دلالات الضعف والصفر نسبة للشبه مع شكل الهلال وضعفه، قال ابن فارس : (ثُمَّ قِيلَ عَلَى مَعْنَى التَّشْبِيهِ تَهَلَّلَ السَّحَابُ بِبَرَقِهِ: تَلَأْلَأَ، كَأَنَّ الْبَرْقَ شُبِّهَ بِالْهِلَالِ. وَمِمَّا حُمِلَ عَلَى التَّشْبِيهِ أَيْضًا الْهِلَالُ: سِنَانٌ لَهُ شُعْبَتَانِ. وَالْهِلَالُ: الْمَاءُ الْقَلِيلُ فِي أَسْفَلِ الرَّكِيِّ. وَالْهِلَالُ أَيْضًا: ضَرْبٌ مِنَ الْحَيَّاتِ... وَيَقُولُونَ: الْهِلَالُ: سَلْخُ الْحَيَّةِ. وَالْهِلَالُ: طَرَفُ الرَّحَى إِذَا انْكَسَرَ مِنْهَا. وَيَقُولُونَ: ثَوْبٌ هَلْهَلٌ: سَخِيفُ النَّسْجِ، كَأَنَّهُ فِي رِقَّتِهِ ضَوْءُ الْهِلَالِ. وَشِعْرٌ هَلْهَلٌ: رَقِيقٌ. وَسُمِّيَ امْرُؤُ الْقَيْسِ بْنُ رَبِيعَةَ مُهَلْهِلًا لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ رَقَّقَ الشِّعْرَ) (ابن فارس، 1979: 6/11–12).

والعرب تُفرّق بين القمر، والهلال، وقد ورد كلام ابن فارسٍ في كونهم يقولون هلالٌ للثلاث ليالٍ الأولى، ولكنّ هذا الأمر غير متفق عليه ؛ فقد ورد عن قطربٍ (ت 206 هـ) قوله : (قالتِ العربُ للهلالِ في أَوَّلِ ليلةٍ يطلُعُ: هلالٌ. والثانية لا يُقالُ له: هلالٌ، إلى مثلِها من الشَهرِ المقبل. وإنْ لم يُر إلاّ بعد الثالثة فهو قَمَرٌ. وقالَ بعضُهُم: يُقالُ له في الثالثةِ هلالٌ أيضاً.

وقال بعضُهُم: ما لم يستدِرْ فهو هلالٌ، ثم يُسمَّى قمراً إذا استدارَ بِخَطٍّ دَقيقٍ قبلَ أنْ يَغْلُظَ) (قُطْرُب، 1985: 20)، وعليه فإن مدار الاختلاف بين الهلال والقمر مقدار استدارته وحجمه، ومع الأخذ بنظر الاعتبار للدلالة الصوتية المقترنة بالجذر فإنّ **الهلال** يكون في بداية الشهر، قد يكون الأوّل منه، أو في الليالي الثلاثة الأولى منه .

أما ما ذكره الصغانيّ (ت 650 هـ) من نقله عن العرب تسميتهم للقمر في لياليه الأخيرة هلال فغريب، قال : (وقال أبو الهَيْثَم: يُسَمَّى القَمَرُ، لِلَيْلَتَيْنِ مِنْ أَوَّلِ الشَّهْرِ: هِلَالًا، ولِلَيْلَتَيْنِ مِنْ آخِرِ الشَّهْرِ – سِتٍّ وعِشْرِينَ، وسَبْعٍ وعِشْرِينَ –: هِلَالًا، ويُسَمَّى ما بَيْنَ ذلك: قَمَرًا) (الصغانيّ، 1977: 558/5)، والأقرب أنه غير صحيح ؛ لأنّ القمر لا يظهر في هذه الليالي ويسمّى محاقاً، ولأنه لو سمّي فيهنّ فلم يفرّقون بين آخره وأوّله، من دون فاصل، ويؤيد هذا بيتٌ من الشعر الجاهليّ لأوس بن حجرٍ يقول فيه (ابن حجر، 1980: 38):

فَلَوْ كُنْتُمُ مِنَ اللَّيَالِي لَكُنْتُمُ كَلَيْلَـةِ سـرٍّ لَا هِلَالٌ وَلَا بَـدْرُ

إذ شبّه أوس الذين يخاطبهم بأنهم من الليالي التي لا يظهر فيها شيء ؛ فجعل المحاق ليلة السرّ خافية لا ينتفع بها خلافاً لليالي التي يظهر الهلال والبدر .

وقد ورد عن العرب ما يُظهر ارتباط شكل الهلال بالتفاؤل عندهم ؛ فهم يتفاءلون بالهلال إذا كان شكله مستقيماً، ويتشاءمون من الهلال إذا كان ظهره مستلقياً وطرفاه إلى أعلى، يقول الصغاني (ت 650 هـ) : (وقال أبو مَالِكٍ: هِلالٌ أَدْفَقُ خَيْرٌ مِن هِلالٍ حاقِنٍ؛ قال: والأَدْفَقُ: الأَعْوجُ؛ والحَاقِنُ: الذي يَرْتَفِعُ طَرَفاهُ ويَسْتَلْقي ظَهْرُه؛ ويُقال: هِلالٌ أَدْفَقُ؛ أي: مُسْتَوٍ أَبْيَضُ لَيْسَ بمُتنَكِّبٍ على أَحَدِ طَرَفَيْهِ.

وقال أبو زَيْدٍ: العَرَبُ تَسْتَحِبُّ أن يُهِلَّ الهِلالُ أَدْفَقَ، ويَكْرَهون أن يَكُونَ مُسْتَلْقِيًا ارْتَفَع طَرَفاهُ) (الصغانيّ، 1977: 52/5). وهذا يدلّ على اهتمامهم برصد الهلال ومعرفة أشكاله حتى لو لم يكن الغرضُ من ذلك دينياً .

الهلال في الشعر القديم :

يظهر الارتباط بين المفاهيم الدينية، والهلال، وتحوّله إلى **آيقونة** دينية خاصة في الشعر العربي منذ القدم، فصيفيّ بن الأسلت الجاهليّ المخضرم (القرطبي، 1992: 734/2) يربط بين الهلال والمعنى الديني ؛ حين يقول (باجوده، 1973: 85-86):

سَبّحوا للهِ شرقَ كُلّ صباحٍ طلَعَتْ شمسُهُ، وكلّ هلالِ
عالـــمُ السرّ والبيانِ لدينا ليس ما قـالَ ربُّنا بضلالِ

ويبدو التداخل النصّي مع القرآن الكريم بارزاً في قوله تعالى : **(فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ الْغُرُوبِ)** (سورة ق: 39) ، إلّا إن الشاعر قد وظّف الهلال للدلالة على الغروب، إلّا إنه جعل الهلال بمكانة القمر، وقد تبيّن من النصوص السابقة أن العرب يفرّقون بين القمر والهلال .

ويبدو المنحى الجمالي في قيمة الهلال؛ فالهلال الغلام الحسنُ الوجه(الصغانيّ، 1977: 558/5)، وعليه بُنيت القيمة الجمالية له في الشعر، وقد ورد تشبيههم الرجل الجميل الوجه بالهلال، قال معفر بن حمار البارقيّ(ابن ميمون، 1999: 269/9):

أَغَـرُّ كَـأَنَّ جَبْهَتَـهُ هِلالٌ لِظُلْمِ الْجارِ وَالْمَوْلَى عَيُوفُ

ونلمح توجّهاً غزليّاً يوظّف الهلال في الصورة حين يشبّه عنترة بن شدادٍ العبسيّ حبيبته عبلة بقوله (ابن شداد، دون تاريخ: 62):

مُنَعَّمَـةُ الْأَطْـرَافِ خَوْدٌ كَأَنَّهَا هِلَالٌ عَلَى غُصْنٍ مِنَ الْبَانِ مَائِدِ

وعليه فإنّ المنحى الجماليّ للهلال في تشبيههم كان يسير في خطّين من دون أن يتعارضا ؛ الأوّل منهما في وصف حسن الرجل، والثاني في وصف جمال المرأة، ورشاقتها .

هذه القيمة الجمالية ظلت في الذاكرة الأدبية للشعر العربي، يستعين بها الشعراء في قصائدهم، من ذلك مثلاً توظيف الخبزآرزي للهلال في مقابلة بين الهلال الطبيعي الذي هو الجرم السماوي، والهلال الذي هو الحبيب حينما يتماهى كلّ واحدٍ منهما في الآخر، فقال (الخبزآرزي، 1989: 186-187):

رأيتُ الهلالَ ووجهَ الحبيب فكانا هلالَينِ عند النَّظرْ
فلم أدرِ من حيرتي فيهما هلالَ الدجى مِن هلال البشرْ
ولولا التورُّدُ في الوجنتين وما راعني من سواد الشَّعَرْ
لكُنتُ أظن الهلالَ الحبيبَ وكنتُ أظن الحبيب القمرْ

المقدمة، والهيكل الموروث :

تُظهر المقدمات في الشعر الكلاسيكي العربيّ نمطاً اختزالياً يُكثف الخبرات الفردية، أو الجمعية لدى الشاعر، أو بيئته، أو مرجعياته الثقافية التي يستمد منها خطوط الإبداع(عبد الواحد، 2007: 10-14).

تبدو المقدمة ذات قيمة براغماتية في تصوّرنا النقديّ الذي اعتدنا عليه، إذ آمنا -بلا جدلٍ- بوجود ملازمة عقلية بين المقدمة وبقية أجزاء القصيدة العمودية، وبعبارة أكثر وضوحاً فإنّ وجود المقدمة يجيب على تساؤلات يثيرها الفضول: لماذا، وكيف؟، وهو أمر يستدعي المراجعة والنقد ؛ لإثبات مصداقيته(عطوان، 1970: 209-235).

لماذا ؛ بمعنى الغائية التي تفرضها المقدمة وجوداً وتفسيراً، وما هي النفعية المطروحة قبالة جسد القصيدة كلها ؟! نحن نؤمن بصورة لا تقبل النقاش بوجود مرحلة زمكانية محدّدة تسبق القصيدة، هذه المرحلة تشغلها المقدمة، ولهذه المرحلة غاية تفرضها القصيدة جسداً ومعنى، بمعنى أنّ شكلها، ومضمونها محكومان بماهيّة الوجود الأصلي للقصيدة نفسها، لهذا قال المتنبي الناقد(الواحدي، 1999: 1227): (من الطويل)

إذا كان مدحاً فالنسيبُ المقدّمُ

أما كيف، فهذا ما تفرضه المرجعيات المادّة بشراييها لتشكّل الثقافات الخالقة للنصّ نفسه (أدامي، 2017: 13-33)، ولعلّ تمرّد أبي نوّاس على طلليات القدماء تمثّل إجابة مقنعة – نوعاً ما – فالطلل الذي أصبح هدفاً فكاهياً للتمرّد في قوله(أبي نواس، دون تاريخ: 134):

قُلْ لمَنْ يبكي على رسمٍ دَرَسْ

واقفاً ! ما ضرّ لو كانَ جلسْ

حوارية استدعت تناصّاً كثّف الشاعر في (واقفاً) قول امرئ القيس(امرئ القيس، دون تاريخ: 8) (ابن العبد، 2000: 23): (من الطويل)

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ

بسِقطِ اللوى بين الدخولِ، فحوملِ

وقوفاً بها صحبي عليَّ مطيّهم

يقولون : لا تهلكْ أسىً وتجمّلِ

استدعاءٌ طقوس النمط الكنسيّ للشعر القديم بالوقوف على الأطلال المصاحب لزخمٍ عاطفيّ جيّاش مضطرب يستحقّ التفسيرات القائلة بقلق الوجود، والموت، والحياة، وصراع البقاء، وغير ذلك أضحى رماداً تذروه الرياح عند أبي نوّاس الذي يمتّ لأصول فارسية حضرية لا تعرف هذا القلق الفلسفي المبنيّ على حياة صحراوية قاسية !

قد يتجاوز أبو نوّاس بقوله(أبي نواس، دون تاريخ: 46): (من البسيط)

عاجَ الشقيُّ على دارٍ يُسائلها

وعُجتُ أسألُ عن خمّارة البلدِ

كمْ بينَ مَنْ يشتري خمراً يلذُّ بها

وَبينَ باكٍ على نُؤيٍ، ومنتضَدِ

حدود ما هو مقدّسٍ في هيكلية المقدمة الطللية، لا لأن امرأ القيس لم يعرف الحانات، وهو الملك الضِلّيل، بل هو محاولة جريئة لخرق الـ(كيف) الذي اعتاده الشعراء حتى لو لم يعرفوا الصحراء، فهو – كما يبدو – أكثر واقعية في محاولة خلق التجربة الشعرية التي تليق به، تجربة تستمد جذورها من مرجعيّاته هو، لا من مرجعيات غيره .

نحنُ أمام تساؤلات كثيرة للغايات المثمرة من دراسة المقدمة بهذا الشكل النفعي البراغماتي، أو فلنقلْ بسهولة : لا بدّ من هدفٍ يسعى له الشاعر من مقدّمته التي قد تصل إلى حدّ التخاطر الذهني المشكّل لتناص كامل بين مقدمتي امرئ القيس، وطرفة بن العبد، إذ يعكس التماثل الكامل بين بيتيهما :

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيهم

يقولون : لا تهلكْ أسىً، وتجمّلِ

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيّهم

يقولون : لا تهلكْ أسىً، وتجلّدِ

إذ يعكس هذا التطابق المذهل واقعياً المرجعيّات المتشابهة لدى التجربتين، في بيئة متقاربة لحد كبير، ولكنّ الاتّكال على نسخ التجربة الشعرية قاد بطريقة خاطئة لصنع قوالب لمقدّمات جاهزة حتى لو لم يكنِ الشاعر ابن تلك البيئة الثقافية، والاجتماعية التي تمدّه بالتجربة، ولو استمع الشعراء لنصيحة أبي نوّاس لكان الأمر شيئاً آخر !

الهلال، وتجربة الشعر الحسينيّ :

في واحدة من التجارب الشعرية التي نمت في القرنين الأخيرين ظهرت نمطية جديدة في المقدمة في الشعر الحسينيّ ؛ تلك المقدمة التي جعلت من الهلال مادّة لموضوعها، وهو أمر يدعونا للتأمل في الأنساق الثقافية الخالقة لهذه التجربة .

يرصد السيد جواد شبر بدايات أولى لورود المقدمة التي تستهل بالقمر، وهو هلال في القصائد الحسينية، ومن أقدمهنّ، قصيدة للسيد معتوق الموسوي (ت 1087 هـ) يقول فيها(شبر، 1988: 125/5): (من الكامل)

هلّ المحرمُ فاستهلّ مكبّرا

وانثرْ به درَرَ الدموعِ على الثرى

وانظرْ بغرّته الهلالَ إذا انجلى

مسترجعاً متفجّعاً متفكّرا

واقطفْ ثمارَ الحزنِ من عرجونهِ

وانحرْ بخنجرهِ بمقلتكَ الكرى

وقضية البحث عن البدايات الأولى تستحقّ المغامرة، والتنقيب، لما سنذكره من تحليل لهذه المطالع، من حيث قيمتها المرجعية ؛ الخالقة لنمطٍ قد اقترن بالشعر الحسينيّ .

وهناك قصيدة أخرى لشاعر من العصر نفسه يدعى السيد نعمان الأعرجي، مطلعها قوله(شبر، 1988: 141/5): (من الكامل)

جزعاً بكى وأخو الصبابة يجزعُ

وجرت سواكب دمعه تتدفعُ

صبّ إذا هلّ المحرم هاجه

وجدٌ تفيض العين منه وتدمعُ

وجوىً لما نال الحسين وآله

نيرانه بين الأضالع تسفعُ

ثم تستمر النماذج المرضودة التي تجعل من الهلال بداية للمطالع في القصائد الحسينية، وهي مادّة هذا البحث بعونه تعالى .

تعود مرجعية الهلال في الذهنية الدينية الإسلامية لمسار تشريعي يمتلك بدايات تقويمية سابقة عليه، فالتقويم الجاهلي كان يعتمد القمر في تحديد الشهور، إلّا إن تصنيف الشهور إلى حُرم لها أحكام خاصّة، وغير حُرم يجعل للقمر وهلاله قيمة تشريعية، ولا سيّما الصوم الذي أصبح الهلال محدّداً زمنياً لدخوله، وخروجه، كقوله (صلّى الله عليه وآله وسلّم): " **صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته**"(الطوسي، 1365هـ ش: 161/4)، وهو ما يُعرف عند الأصوليين بـ **الواجب المؤقت المضيّق**(الفضلي، 2007: 15)، هذا التقييد جعل من القمر ذا رمزية دينية خاصّة تختلف **زمانياً** حتى عند المسلمين ؛ فقيمة هلال شهر رمضان يختلف في هذه القيمة التي يتفرّد بها عن غيره من الشهور .

إنّ تتبع القيمة الحضارية للهلال تُظهر تطوّراً جديداً تمثّل بالقيم القرآنية الضّاخّة عقدياً لفكرة التدبّر، والتأمل في خلق الكون، وحركة النجوم والكواكب، هناك سورة قرآنية كاملة تحمل اسم **القمر**، وهناك 25 موضعاً لذكره في القرآن الكريم رسّخت القيمة الاستدلالية على وجود الله تعالى وعظمة خلقه، مع ما تُشير إليه بعض الآيات من قِدَم هذه المسألة في ما قبل الديانة الإبراهيمية، وتصحيحها لدى أبو الأنبياء (عليه السلام)، في قوله تعالى : **(فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ)** { الأنعام : 77} .

تتعدد القيم التعبيرية المخزونة للقمر، إلّا إنها دلالات دينية خاصّة، وظّفها الإمام السجّاد توظيفاً عقدياً عبادياً، فإضفاء الصبغة العبادية على النصّ يمنح مفرداته – ومنها القمر – دلالات إضافية تستمد من قداسة الدعاء قداستها، فكان من دعائه الثالث والأربعين من أدعية الصحيفة السجادية قوله : (أَيُّهَا الْخَلْقُ الْمُطِيعُ الدَّائِبُ السَّرِيعُ الْمُتَرَدِّدُ فِي مَنَازِلِ التَّقْدِيرِ، الْمُتَصَرِّفُ فِي فَلَكِ التَّدْبِيرِ، آمَنْتُ بِمَنْ نَوَّرَ بِكَ الظُّلَمَ، وَأَوْضَحَ بِكَ الْبُهَمَ، وَجَعَلَكَ آيَةً مِنْ آياتِ مُلْكِهِ، وَعَلاَمَةً مِنْ عَلاَمَاتِ سُلْطَانِهِ، وَامْتَهَنَكَ بِالزِّيادَةِ وَالنُّقْصَانِ، وَالطُّلُوعِ وَالأُفُولِ، وَالإِنارَةِ وَالْكُسُوفِ، فِي كُلِّ ذلِكَ أَنْتَ لَهُ مُطِيعٌ وَإِلى إِرَادَتِهِ سَرِيعٌ ...) (السجاد عليه السلام، دون تاريخ: 163) .

تتجاوز حدود دلالات القمر وهلاله الحدود التي وضعها الدين له لتُصبح له قيماً اجتماعية جديدة، فدخول هلال شهر المحرم يعني بالضرورة دخول السنة الهجرية، وهو ما يُعدُّ عيداً لدى كثير من المسلمين، ونلحظ أن القيمة الاجتماعية الحاملة لمعاني الفرح والسعادة والاحتفال قد استمدّت ذلك من القيم الدينية لكنها تحوّرت ووظفت في إطار (ديني – اجتماعي) .

إلّا إنّ اقتران المحرم بعاشوراء كان طاغياً على هذا الحدث لدى أتباع أهل البيت (عليهم السلام)، فلم يتغلغل هذا الاقتران بين الهلال، والهجرة في سلوكياتهم الاجتماعية، بل العكس من ذلك، فدخول المحرم يعني ابتداء المراسم الطقسية الخاصة بكربلاء ومآسي الحسين (عليه السلام) وعترته الطاهرين !

يمكننا الجزم أن اقتران الهلال بالحزن، إيذاناً ببداية المحرم يمتلك مرجعيات ثقافية خاصّة لدى أتباع أهل البيت (عليهم السلام)، بمعنى أنّ صناعة المقدمة بهذا الاستهلال القمري يمتلك مرجعياته المسبقة، ولم يحتج غير جرأة أحد الشعراء

لتوظيف تلك المرجعية وأنساقها في إبداع جديد، ومن تلك المرجعيات الحديث عن الإمام الرضا (عليه السلام)؛ الذي يصف فيه حزن الأمام الكاظم (عليه السلام) قائلاً : (كان أبي(صلوات الله عليه) إذا دخل شهر المحرّم لا يرى ضاحكاً، وكانت الكآبة تغلب عليه حتّى يمضي منه عشرة أيّام، فإذا كان يوم العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبته وحزنه وبكائه، ويقول: هو اليوم الذي قتل فيه الحسين" صلوات الله عليه ")(القمّي، 1417هـ: 191) .

ومع وجود الهيمنة العثمانية القاسية، ومنعها لتلك المراسم بالقوة والبطش يدعونا للتأمل بانبثاق هذه المقدمات في الشعر الحسيني بما يُشير لانفراج مؤقت يومذاك، فتركيز الشعراء على ترسيخ هذه الظاهرة ؛ وهي الاستهلال لشهر محرم يمكن تحليلها سياسياً بوجود فراغ أمني يسمح بإقامة الشعائر اجتماعياً، وإنْ كان هذا الاحتمال مورد شكّ ويحتاج لأدلة تاريخية !

ربما يغري الباحث في مجال الأدب التوظيف الفني لقيمة الهلال دلالياً ؛ فقد شهدنا انزياحاً في الدلالة ؛ لم تعد دلالة الهلال تبشيرية ذات طاقة إيجابية كما في هلال شهر رمضان، بل أصبحت ذات دلالات عكسية، قاتمة ومؤلمة ومؤذنة بالحزن والإيلام وتذكر المصائب، لقد أضحت قيمة الهلال معادلاً أدبياً – لو صحّ التعبير – لقيمته الزمنية المؤذنة بالسواد والحزن، يختصر ذلك المعنى السيد مهدي البغدادي (1329هـ) بقوله(شبر، 1988: 218/8): (مجزوء الكامل المرفّل)

تنهلّ أدمعُ مقلتي إن قيلَ لي : هلّ المحرمْ
ما إنْ ذكرتُ مصيبةً لكنّما ذكراهُ مأتمْ

وقول الشيخ مهدي الفلوجي (ت 1357 هـ) (شبر، 1988: 172/9) : (من الكامل)

كمْ فيكَ من حرمٍ أُبيحَ، ومن دمِ
من آلِ أحمدَ يا هلالَ محرّمِ

ومن الطبيعي أن ما حدث ليس بالعملية السهلة ؛ إذ إن الدلالة السابقة مركوزة في الذهنية الأدبية لا يمكن إلغاؤها ؛ لأنها تختزل ثقافة جمعية مركوزة في الذهن أدبياً ولغوياً على حدّ سواءٍ، فدلالات الهلال الإيجابية دينياً واجتماعياً لم تعد نفسها ؛ لقد مورس إلغاء كامل لتلك القيم، وأعيدَ إنتاج الدلالة بشكل آخر، أُستبدل الفرح بالحُزن، وأصبحت واقعة الطف طاغيةً بقتامها وحزنها والآمها هي المسيطرة على كلّ شيء، لا ينازعها في ذلك موقف، أو حدث .

في تجربة شعرية للشاعر عبد الحسين صادق العامليّ (ت 1942 م) يقول فيها(شبر، 1988: 235/9): (من الطويل)

أ ذا غـــربُ سيفٍ أم هـــلالُ المحـــرمِ ؟! تضـــــرّجَ منـه الشـــرقُ في علقِ الـدمِ
أ هـــــذي السما أم كـــربـــلا وبـــروجهـــا الـقـبـابُ، وبـرجُ الـلـيـثِ ظـهـرُ الـمـطـهّـمِ
أ شـهـــبٌ بها تنقـــضّ أم آلُ (أحـــمـــدٍ) تهـادث تبـاعـاً عن مِطـا كـل شـــيضَـــم
أ أقمارُ تـــمٍّ غالَهـــا الخسفُ أم هـــي .... الـمصـــابـيـح ســـادات الـحـطـيـم وزمـزمِ
أ بدرُ الدياجى أم مـــــحيّا ابـــــن فاطـــــمٍ تـبـلّـجَ فـي ديـجـورِ جـيـشٍ عـرمـــــــرمِ
أجل هـــــو ســبط المصـــطفى شـــبل حيدرٍ وناهيك منـه ضـــيغمٌ شـــبلُ ضـــيغـــــم
فـما نـابـه إلا مثـقّـفُ صعـــــــــــدةٍ ولا ظفـــــرُه إلا محـــــــدّبُ مِخـــــــذمِ
لـــه لُبَـدٌ مـن نجـــــــــدةٍ وبـسـالـــــةٍ تـخرّ لـــه الأبطـالُ لـلأنـــــــفِ والفـــــمِ

هذه التجربة التي تقف على محاور متشابكة من التساؤلات التي تدعو للتعجب، والاستغراب، فالدعوة للشكّ في الصورة، وتوهم الحاسّة البصرية لاشتراك مكوناتها في الصورتين بما يدعو للتأمل يمنح الشاعر فرصة لجذب اهتمام المتلقي وفتح أبواب استحضار الصور المتداعية بسبب الحدث المأساوي نفسه .

وتظلّ التساؤلات بوابة لتشكيل بصري مزدحم ومتدفق لا يكاد يقف، نحن أمام تداعيات بصرية متشابكة، تشير إلى فداحة الحدث الجلل، وتحاول من خلال محاورة التقاط صور صاخبة ومتوترة في آن واحدٍ تخلق انفعالات حسّية وتساؤلات انفعالية مدهشَة، لتكون بوابة لصورة بانورامية أكبر .

هذه التساؤلات المزدحمة على أعتاب الحاسّة البصرية وجدت إجابات مقنعة لفداحتها، كأن الشاعر يحاول خلق معادل بصري لذلك كلّه ؛ فاستشهاد الإمام الحسين (عليه السلام) كفيل بأن يكون أعظم فداحة من كلّ الصور المرسومة في مخيلة المرسِل والمتلقي على حدّ سواء .

ويوظف الشاعر منصور الشهابيّ البحرانيّ (ت 1969م) [1] الهلال في تجربة جديدة مختلفة ؛ يتجاوز فيها حدود الإستهلال الذي أصّله الشعراء في انتقالة موضوعية من كونه مقدمةً يستهلّ بها الشاعر قصيدته ليكون غرضاً كاملاً لها؛ إذ لم يعدِ الهلال جزءًا يتكئ عليه الشاعر في بناء قصيدته وأصبح هو القصيدة كلها ؛ فيقول(الموسوعة الشعرية : https://shoaraa.com/show-35750.html):

لـشهرِ مـحـرمٍ لاحَ الـهـلالُ

فـهلْ لـدموعِ عـينيكَ انـهـلالُ

بـدا فـنـظامُ أفـراحـي حـرامٌ

بـــهِ ودوامُ أتـراحـي حـــلالُ

بـدا فـكسا الـعوالمَ والـمعالي

أسـىً لـلـحشرِ لـيس لـهُ زوالُ

بـدا مـتـكدِّرًا لأجـلِّ خـطبٍ

لـهُ فـي القلبِ كالجمرِ اشتعالُ

وتستمر القصيدة على هذا المنوال التقليدي حتى يختمها بالعود على ما بدأه من استهلالٍ قمري، فقال :

تـجدَّدَ حزنُنا فـي كـلِّ عـامٍ لـشهرِ مـحـرمٍ لاحَ الـهـلالُ

---

(1) وُلِدَ الأستاذ الشاعر الملا منصور بن الحاج إبراهيم آل شهاب عام 1904 في البحرين، ولقد كان من أوائل المعلمين في قرية الدراز، له ديوان **الصرخة المرحومة في رثاء العترة المظلومة**، طبع منه الجزء الأول، وهو بالفصحى والعامية، وله ديوان بالفصحى مخطوط لم يطبع، توفي سنة 1969 م، (الموسوعة الشعرية على الانترنت : بتاريخ : 4 / 5/ 2022) https://shoaraa.com/show-35750.html

وعلى الرغم من هيمنة الشكل التقليدي للقصيدة باستثارتها المتناقضات الحسّية والمادّية لدى الشاعر إلّا إن انتقال الهلال من كونه عتبة أولى للولوج في عالم الحزن إلى كونه موضوعاً بنفسه يُشكّل خطوة جديدة في هذا المجال .

الخاتمة :

يختزن الهلال في الذاكرة الشعرية ارتباطاً قديماً بين الدلالات الدينية، والتقويم الهجريّ، والهلال الذي تجاوز حدود التوصيف اللغوي المشتمل على دلالات الصوت، وارتباطها بالتلبية في الحجّ، وتوظيف شكله في النمط الغزليّ الذي ظلّ سائداً في أدبيات القصيدة العمودية .

وفي بدايات جديدة حاول الشعراء الذين كتبوا في رثاء سيّد الشهداء (عليه السلام) توظيف الهلال بشكل جديد يتجاوز نمطيته الغزلية فأصبح الهلال بوابة للولوج إلى عالم الحزن والشعر في آنٍ واحدٍ ؛ فمثّلت هذه الخطوة رسماً لخطوات في الاستهلال القمريّ لم تكن مألوفة في السابق، وأصبح الهلال في شهر محرّم الحرام هلالاً مختلفاً ؛ إذ لم تعد دلالاته على الرشاقة والجمال هي الغاية التي يتطلبها الشعر؛ بل أصبح الهلال ناقوساً يدقّ أولى لحظات الحزن والبكاء على سيد الشهداء (عليه السلام)، ولم يكتف الشعراء بذلك فوجدنا خطوات جادّة لمنح الهلال أبعاداً أكثر تأثيراً ليكون هو القصيدة، أو عصبها الرئيس، وصاحب موضوعها الأكثر تأثيراً وبروزاً .

المصادر :

- **القرآن الكريم .**

1- ابن العبد، (2000): ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشنتمري، تحقيق: درّية الخطيب، ولطفي السقال، دائرة الثقافة والفنون، البحرين.
2- ابن حجر (1980): ديوان أوس بن حجر، تحقيق وشرح : د. محمد يوسف نجم، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت.
3- ابن شداد، عنترة (دون تاريخ): شرح ديوان عنترة بن شداد، عُني بتصحيحه : أمين سعيد، المطبعة العربية، مصر.
4- ابن فارس، أحمد بن زكريا (ت 395 هـ)، (1979): معجم مقاييس اللغة، تحقيق : عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، القاهرة، ط1.
5- ابن ميمون، محمد بن المبارك بن محمد (ت 597 هـ)، (1999): منتهى الطلب من أشعار العرب، تحقيق وشرح : د. محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ط1.
6- أبي نواس، (دون تاريخ): ديوان أبي نوّاس الحسن بن هانئ، حققه وضبطه وشرحه : أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان.
7- أدامي، خميس (2017): المرجعية المعرفية للمقدمة الطللية بين الجاهلية وصدر الإسلام – دراسة في النسق الثقافي، (أطروحة دكتوراه)، كلية اللغة والأدب العربي والفنون، جامعة باتنة 1، الجزائر.
8- امرئ القيس، (دون تاريخ): الديوان، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط4.
9- باجوده، د. حسن محمد (1973): ديوان أبي قيس صيفيّ بن الأسلت الأوسيّ الجاهليّ، (دراسة، جمع، تحقيق)، مكتبة دار التراث، مطلعة السنة المحمدية، القاهرة.
10- الخبزآرزي، (1989): الديوان، تحقيق : الشيخ محمد حسين آل ياسين، مجلة المجمع العلميّ العراقيّ، بغداد، ج1/ المجلد 40.
11- السجاد (عليه السلام) (دون تاريخ): الصحيفة السجادية الكاملة، تحقيق وتنسيق : علي أنصاريان، منشورات المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية، دمشق.
12- شبر، جواد (1988): أدب الطف، دار المرتضى، بيروت، ط2.
13- الصغانيّ، الحسن بن محمد بن الحسن (ت 650 هـ)، (1977): التكملة والذيل والصِّلة، تحقيق : إبراهيم إسماعيل الأبياري، راجعه محمد خلف الله أحمد، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ط1.
14- الطوسي، أبو جعفر (ت460 هـ)، (1365هـ ش): تهذيب الأحكام، تحقيق وتعليق: حسن الموسوي الخرسان، دار الكتب الإسلامية، طهران، مطبعة خورشيد، ط4.
15- عبد الواحد، سعيدة علي (2007): بنية القصيدة الجاهلية– دراسة فنية موضوعية، (رسالة ماجستي)، كلية اللغة العربية، جامعة أم درمان.
16- عطوان، د. حسين (1970): مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة.
17- الفضلي، د. عبد الهادي (2007): مبادئ أصول الفقه، مراجعة وتصحيح: لجنة مؤلفات العلامة الفضلي، مركز الغدير للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان.
18- القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري (ت463هـ)، (1992): الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق : علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط1.
19- قُطْرُب، أبو علي محمد بن المستنير بن أحمد (ت 206هـ)، (1985): الأزمنة وتلبية الجاهلية، تحقيق : د. حاتم الضامن، مؤسسة الرسالة، ط2.
20- القمّي، أبو جعفر محمد بن بابويه (ت 381هـ)، (1417هـ): أمالي الصدوق، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة، قم – إيران، ط1.
21- الموسوعة الشعرية : https://shoaraa.com/show-35750.html

22- الواحدي، (1999): شرح الواحدي لديوان المتنبي، ضبطه وشرحه وقدّم له وعلّق عليه وخرّج شواهده : د. ياسين الأيوبي، و د. قصيّ الحسين، دار الرائد العربي، بيروت – لبنان، ط1.